المحاضرة رقم -٦-

الحداثة

١-تعريف الحداثة:

الحداثة ليست مفهوما اجتماعيا أو تاريخيا أو سياسيا وإنما هي نمط حضاري، يتميز بشموليته وتعارضه مع التقاليد وحضوره في جميع الأشياء والموضوعات ومن هنا نقول دولة حديثة وتقنية حديثة وفن وأدب حديث.

٢-آراء بعض المفكرين وعلماء الاجتماع حول الحداثة:

يرى كل من "كارل ماركس" و"إميل دوركايم" و"ماكس فيبر" إن الحداثة تجسد صورة نسق اجتماعي متكامل، وملامح نسق صناعي منظم وأمن وكلاهما يقوم على أساس العقلانية في مختلف المستويات والاتجاهات

وتتمثل الحداثة كما يحددها "جيدن" (**Gidden**) في نسق من الانقطاعات التاريخية عن المراحل السابقة حيث تهيمن التقاليد والعقائد ذات الطابع الشمولي الكنسي، فالحداثة وتتميز بأنماط وجود وحياة وعقائد مختلفة كليا عن هذه التي كانت سائدة في المراحل التقليدية حيث عرفت التغيرات التي شهدتها الحداثة بطابع التسارع والتنوع والشمولية ولاسيما في مجال التكنولوجيا والمعرفة العلمية التكنولوجية، كما عرفت هذه المرحلة أيضا بتنامي الاتصالات الفعالة بين جوانب الحياة الإنسانية، حيث شملت الأقاليم والمناطق المتباعدة في جغرافية الكون، وهذه المرحلة التي حدثت فيها تحولات جوهرية في عمق المؤسسات على مدى تنوعها وقد سمحت هذه التحولات والتغيرات الجوهرية في شروط الوجود للناس من السيطرة على مقدرات وجودهم وبشروط حياتهم[١].

ويركز المفكرون عادة في تعريف الحداثة على فكرتين أساسيتين

١- فكرة الثورة ضد التقليد

٢- فكرة مركزية العقل.

---

[١] إميل دوركايم: التربية والمجتمع، ترجمة على وطفة، الينابيع، دمشق، ١٩٩٩، ص١٣٣

٣-الملامح التاريخية للحداثة

من حيث المبدأ يختلف العلماء في تحديد المرحلة التاريخية التي بدأت فيها الحداثة، ويرى المؤرخون أن العصر الحديث بدأ مع اكتشاف أمريكا من قبل "كريستوف كولمبوس" عام ١٩٢٣م وينظر المفكرون أن تخوم العصر الحديث تبدأ مع الأحداث التاريخية الكبرى التي تمثلت في بداية اكتشاف "جاليلو" لمركزية الشمس وسقوط القسطنطينية في أيدي الأتراك العثمانيين عام ١٤٥٣م، إذا كان التحديث أو العصر الحديث يبدأ مع هذه المؤشرات التاريخية فإن مفهوم الحداثة يتجلى في حركة الاصلاح الديني التي قادم "مارتن لوثر" عام ١٥١٧ ومن ثم بدأ هذا المفهوم يأخذ أبعاده الفلسفية والسياسية في القرنين السابع عشر والثامن عشر حيث يتجلى خصائصه في ولادة التفكير الفردي والعقلاني الذى أرسى مقوماته "ديكارت" ومن ثم فلاسفة التنوير بعامة.

وغالبا ما يرتبط عصر الحداثة باختراع الحداد الألماني "جوتنبرغ" لآلة الطباعة في منتصف القرن الخامس عشر هذا الاختراع الذي استطاع أن يبدل ذاكرة الإنسانية، كان سبيل الإنسانية إلى بناء ذاكرة جديدة تعتبر الكتابة سجلا تاريخيا استندت إليه الأمم في حركة نهضتها وبناء تقدمها العلمي والمعرفي[٢].

وعلى أساس ذلك استطاع الإنسان توظيف التراكم المعرفي في خدمة الثورات العلمية المتعاقبة التي توجد في أصل الحداثة.

ومن المنطقي في هذا السياق أن يشار إلى الفيلسوف الفرنسي "رينيه ديكارت" ١٥٩٦-١٦٥٠ بوصفه أب الحداثة ولاسيما في مجال التفكير الفلسفي، لقد كان لعبقريته التاريخية أن تؤدي إلى اكتشاف المنهج العقلي الذي قدر له أن يبدد ظلام العصور الوسطى وأن يحرر العقل من عبودية الأنساق الفكرية والأفكار والمعتقدات التي حاصرت العقل ودفعت به إلى القهر، فكان منهج الشك والشك المنهجي لذلك نجد "ديكارت" أكد روح البحث العلمي والحر

[٢] صيام عبد الله: الجذور النتشوية، ما بعد الحداثة الفلسفية والعصر، العدد الأول، أكتوبر، ١٩٩٩، ص ٢٣٧

والقناعة الفكرية الواعية محل المعتقدات العمياء[٣].والشك المنهجي يعتمد لديه على قواعد هامة: أولاها ألا نقبل شيئا ونعتقد بصحته ما لم يتبين لنا بالبداهة كذلك وألا نضم إلى أحكامنا حكما ما لم يره فكرنا ببنية واضحة متميزة، وما لم يكن في مأمن من كل شبهة وشك.

وكذلك نجد فلاسفة التنوير في أوروبا في القرن الثامن عشر إلى تغليب حكم العقل والاهتداء به في الحكم على الأشياء كانوا يدركون بأن الإنسانية عبر تاريخها اهتدت بالعقل من ذلك الاعتماد على المنهج العلمي التجريبي في النظر إلى الكون والوجود والحياة ومن ثم التحرر من الخرافات والتحيزات المسبقة التي تمس أسس التفكير وتشل قدرة العقل في الكشف عن ماهية الأشياء.

وحسب الفيلسوف الألماني "فريدريك هيجل" (١٧٧٠-١٨٣١) أن الحداثة بدأت مع عصر الأنوار بفعل هؤلاء الذين أظهروا وعيا باعتبار أن هذا العصر هو حد فاصل ومرحلة نهائية من التاريخ، لقد أكدت الثورة الفرنسية ١٧٨٩م حضور الدولة البورجوازية والقيم الليبرالية والديمقراطية التي سجلت نفسها في منطق الحداثة.

لقد أدخل التقدم المستمر للعلوم والتقدم والتقنيات، ويهدف العمل إلى الحياة الاجتماعية بعد التغيير المستمر وانهيار المعايير والثقافة التقليدية، وبالتالي فإن التقسيم الاجتماعي للعمل أدى إلى اتصالات سياسية واسعة وإلى إحداث نوع من الصراعات الاجتماعية التي يشهدها القرن التاسع عشر والعشرين وظهرت على التوالي أهمية النمو السكاني ومركزيات المدن والتطور الهائل لوسائل الاتصال والمعلوماتية، هذه العوامل المجتمعية سجلت انطباعاتها في مفهوم الحداثة وأبدتها على أنها ممارسة اجتماعية ونمط من الحياة يقوم على أساس التغيير والابتكار، وعلى أساس للاستقرارية والحركة الدائمة والأزمة[٤].

ومن خلال ما تقدم نجد أن الانجازات الحضارية التي تجسدت بتطور العلوم والتقنيات والتطور العقلاني والمنظم لأدوات الإنتاج أن ترسم حدود الحداثة حيث تبدت هذه

---

[٣] محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي: الحداثة دفاتر فلسفية، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ١٩٩٦، ص٦٢

[٤] إيمانويل كانط: ما هو التنوير، ترجمة اسماعيل المصدق، مجلة فكر ونقد، السنة الأولى، العدد ٤، ديسمبر، ١٩٩٧ ص١٤٤

الحداثة في تكثيف العمل الإنساني وتأكيد الهيمنة الإنسانية على الطبيعة وتلك هي خاصية أغلب المجتمعات الحداثية والتي أدت إلى تغيير عميق وشامل في شروط الحياة والتفكير في آن واحد وقد تمثل هذا التأثير في انتقال الحضارة من حضارة العمل والتقدم إلى حضارة الفراغ والاستهلاك.

٤-خصائص الحداثة: تستند الحداثة إلى الخصائص التالية

- مرحلة تبلغها الإنسانية من خلال عملية التراكم التاريخي والخروج من دائرة الوصاية التاريخية التي فرضت على العقل الإنساني في العصور القديمة.
- الحرية الإنسانية وتأكيد دور الإنسان الحر في مختلف ميادين المجتمع وقضاياه انطلاقا من حقوق الإنسان وتعزيز القيم الديمقراطية.
- العقلانية حيث يتجلى العقل بسيادته وهيمنته في مختلف جوانب الوجود الاجتماعي والسياسي تجليا واضحا لمبادئ التنوير وقيمه.
- أن الحداثة لا يتم استيرادها من الخارج بل هي حالة تنبثق من صميم المجتمع وهذا يعني حالة تطور وتراكم تاريخي تتم في داخل المعطيات التاريخية للحياة الاجتماعية تمهد العميلة الحداثة وحضورها[٥].
- الحداثة لا تتم وفقا لمبدأ المصادفة وإنما هي عملية فعل انسيابي يقتضي منظومة من الشروط الذاتية والموضوعية
- أهمية الوعي الإنساني في فكر الحداثة وضرورة الحضور الثقافي لهذا الوعي في مختلف مجالات الحياة حضورا يؤكد تنامي العقلانية والتنوير، والقدرة على امتلاك اللحظة الذاتية في الوعى الاجتماعية.

٥-المرتكزات الأساسية للحداثة

ويمكن حصرها في النقاط الآتية

- يعقد العقل ودوره في الحياة مبتدأ الحداثة وخبرها ولذلك فإن هيمنة العقل وسيادته تشكل المنطلق الحقيقي للحداثة وأساسها المركزي.

[5]A Giddens : les conséquences de la modernité, Harnatte, Paris,1994, P110

- يأخذ العلم والإيمان بدوره في الحياة الإنسانية دورا مركزيا في مفهوم الحداثة وهو دور يتكامل مع أهمية العقل ودوره التنويري فالمعرفة العلمية هي المحور الأساسي في فهمنا للكون وحقائقه وعلله وتجلياته بصرف النظر عن المعارف التراثية والتقليدية التي سادت في العصور الماضية من تاريخ الإنسانية[٦].
- تأخذ الحرية مكانها المميز في صميم مفهوم الحداثة، فالحداثة هي حالة من المغامرة في عالم الضرورة والحتمية وهي من هذه الزاوية تتجلى صورة إرادة إنسانية حرة تتحدى وتقتضي وتغامر لتصنع مصير الإنسان على مقياس إرادته وعلى أطياف أحلامه الإنسانية وتتمثل هذه الحرية في إرادته الإنسانية تسعى لهدم عالم الوصاية وتدميره بمختلف تجلياته وحدوده ومرتسماته فالإنسان في الحداثة يصنع زمنه ويرسم ملامح مصيره بإرادته.
- الإنسان جوهر الحداثة وهذا يعني أن الإنسان يشكل بإرادته وحريته وحجم حضوره في هذا الكون مصدر الحقيقة الأولى وصانعها، والفعل الإنساني في نهاية الأمر صورة إرادة إنسانية تجعل من الإنسان بصورة الاجتماعية مبتدأ الحقيقة وغايتها.

٦-الاسهامات التي قدمها رواد الحداثة

٦-١-ستيوارت هول: ركز"ستيوات هول" على التعبيرات الجذرية التي جلبتها الحداثة إلى المجتمع التقليدي حيث عرض الخصائص المميزة للمجتمع الحديث كأساس للمقارنة بين المجتمع الحديث والمجتمع التقليدي:

١- **سياسية:** سيادة السلطة السياسية العلمانية على الدولة القومية الجديدة، وتهميش تأثير الكنيسة أي الدين في أمور الدولة والأمور السياسية.
٢- **اقتصادية:** استبدال الاقتصاديات الاقطاعية والاقتصاديات الأخرى قبل التبادل القائم على الإنتاج الكبير واستهلاك السلع النباتية عن السوق وانتشار الملكية الخاصة، وتراكم رأس المال على أساس منظم طويل.
٣- **اجتماعية:** ذبول النظام الاجتماعي التقليدي، ونمو تقسيم جديد للعمل وظهور طبقات جديدة وظهور علاقات متغيرة.

---

[٦] سعد البازعي وميجان الرويلي: دليل الناقد الأدبي، ط٢، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠، ص ١٣٨

٤- **دينية:** ضعف الدين وظهور ثقافة مادية علمانية.

٥- **فكرية:** ظهور الطريقة العقلانية العلمية في تصنيف العالم والنظر فيه، وهناك ارتباط وثيق بين الخصائص الدينية والفكرية.

٦- **ثقافية:** نشوء مجتمعات محلية جديدة بعضها عرقية أو قومية، تتحدى المجتمع التقليدي، وقد طورت الأمم الجديدة رموزها الخاصة بها وتفسيراتها للتاريخ، وهي عملية زادت قوتها في القرن التاسع عشر وتبنى الأمم الحديثة هويتها وتقاليدها الخاصة[٧] بطريقة انتقائية لتناسب أهدافها الخاصة، لذلك تشكلت الهوية القومية الفرنسية بمعارضة الارستقراطية والملكية في حين ظلت الملكية في بريطانيا رمزا للأمة عند الكثرة وكانت هذه العمليات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية كما يقول "هول" بمثابة محركات التي شكلت الحداثة وعلى الرغم من قوة التحول، فلم يكن فوريا أو كاملا، وظل التراث حيا خاصة في بريطانيا، حيث استمر ليس في شكل رواسب مثل الملكية ومجلس اللوردات فحسب بل وفي جهود جميع أنواع الجماعات للبحث عن وقائع سالفة وسلطة لمعتقداتهم وأنشطتهم في الماضي.

٦-٢-هابرماس:

لفلسفته جانب تاريخي ومنهجي في نفس الوقت، فقد تعلم من "هيجل" و"ماركس" ومن الفلسفة التأويلية القائلة بأن موضوعات النظرية الاجتماعية ونظامها لهما تواريخ وكما قال "نيتشه"، الشيء الذي ليس له تاريخ هو وحده الذي ويمكن تعريفه، لأن المجتمعات لها تاريخ، فإنه لا يمكن تعريفها وهذا لا يعني أنه يتعذر تفسيرها، بل يعني أن تفسيرها يجب أن يضع في الاعتبار هذا التواريخ، وهذا ما تحققه فلسفة "هابرماس" اقتداء بأسلوب معين وعليه نجد أن النظرية الاجتماعية له هي تشخيص ونقد للإشكال الحديثة أما النظرية الحداثة والتحديث فهي تركز على البعد الأخلاقي الخفي وذلك بإثبات مدى التشابك بين الخلقية والحداثة، فهي بذلك توضح السبب الذي يجعل لآثار الاستعمار الاجتماعية الضارة وأثرها على أخلاق مجتمع ما، وعلى مستوى معين تشير الحداثة إلى فترة من الفترات ذات بداية زمنية، وما إن كانت تلك الفترة قد ولت أو مازالت تنكشف، أو ما كان من المفترض لو كانت قد مضت أو نودعها فرحين

[7] Mike O'Donnell, Introduction to sociology, Athed, Nelson, surrey, UK, 1997, P23-50

وحسب نظرته فالحداثة تشير إلى الظروف الاجتماعية والسياسية والثقافية والمؤسسية والنفسية التي تنجم عن عمليات تاريخية بعينها[٨].

وعليه تتلخص الحداثة عنده كما يوضح الشكل الآتي:

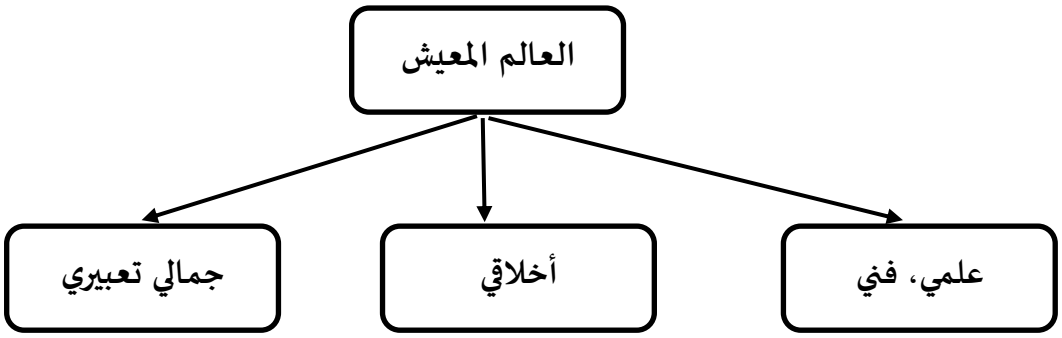

التحديث والتمييز بين نطاقات القيمة: حسب طرحه كان هناك نمو كبير في المعرفة ولاسيما في العلوم الطبيعية ومن القرن السابع عشر فصاعدا كان علوم العصور الوسطى وسيلة غير موثوقة لإسناد خصائص من المفترض أنها تفسيرية للمواد على أساس ملاحظات تدريجية، وإحلال السلطة المعرفية للعلوم الطبيعية والمنطق محلهما يزعم "هابرماس" أن هذه الزيادة في المعرفة المفيدة فنيا قد أقصت بدورها إلى الفصل بين ثلاثة نطاقات مختلفة للقيمة والتي يمكن توضيحها

[٨] يورغن هابرماس: الماضي مستقبلا، ترجمة ماكس بنيسكي كامبريدج، دار النشر بوليتي بريس، ١٩٩٤، ص١١٠

وليس من العجب ظهور ثلاث نطاقات متمايزة لقيمه، لقد حدث التمايز بين نطاقات القيمة منذ بداية نقل السلطة المعرفية والسلطة العملية من المناهج الدينية إلى الصحة، وترتبط أبعاد الصحة الثلاثة بدورها ارتباطا مباشرا بأبعاد الخطاب الثلاثة البعد النظري، والبعد الأخلاقي والبعد الجمالي، وتقوم الفكرة على أنه بينما تسقط رؤى العالم الديني بالتزامن مع صحوة العقلنة، فإن المشكلات التي تتمخض عن ذلك السقوط يتولاها ويحلها واحد من مجالات المعرفة الثلاثة، العلوم الطبيعية والخلقية، القانون، الفنون، وتستمر عمليات التعلم وتتعمق المعرفة ولكن دائما في إطار فرح واحد منذ ذلك الحين. فالحداثة تجلب ريادة كبيرة في كم المعرفة تصبح في العملية نفسها منفصلة عن جذورها في الحياة اليومية وتطفوا بعيدا عن تيار المنهج الذي يتطور بشكل طبيعي في تأويل الحياة اليومية[٩].

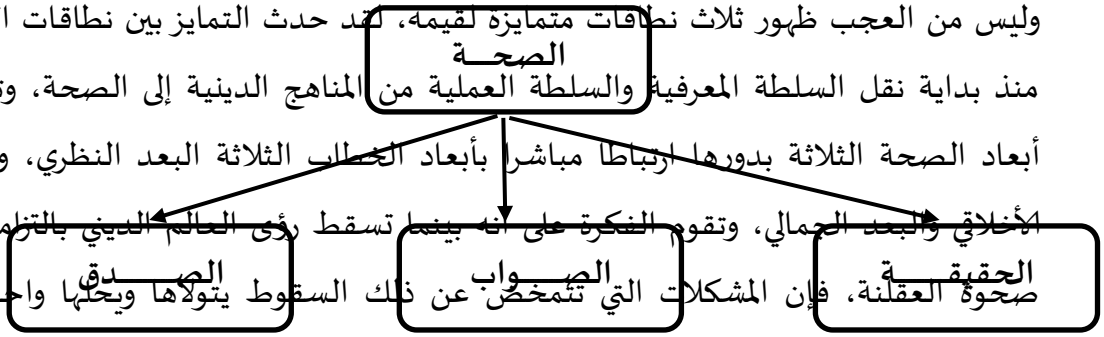

مشروع الحداثة غير المكتمل: يصفه بأنه غير مكتمل لأن المشكلات التي يتناولها لم تحل بعد، إذ يعتقد أنه من غير المجدي تعطيل أو عكس اتجاه عملية التحديث الجارية، ولأنه يعتقد أيضا أن البدائل المطروحة للحداثة أو التحديث أسوأ ومن بين هذه البدائل السيئة مناوأة الحداثة، إن الأفكار المناوئة للحداثة كالمذهب المجتمعاتي لدى "ألسدير ماكنتاير" الذي يدافع ويرحب بعودة أسلوب الحياة الريفية والتقليدية وما هي سوى وسائل مختلفة لتجميل انتكاسة في أشكال الحياة ما قبل الحداثية.

٧-تقييم الحداثة

استطاع علماء الاجتماع عبروا عن رؤاهم النقدية أن يكتشفوا إيجابيات وسلبيات الحداثة ولكنهم مع ذلك كانوا يرجحون الجوانب الإيجابية لهذه الحداثة على مضامينها السلبية.

- لم تستطع الحداثة بنزعتها العقلانية أن تحقق الغايات التي كانت في أصل وجودها في هذا السياق نجد "تورين" يقول أن الحداثة "أنها تطورات ضد ذاتها" وهذا يعني أنها وجدت من أجل تحرير الإنسان ولكنها وفي سياق تطورها وضعيته في عبودية العقل والعقلانية

[٩] الخطاب الفلسفي للحداثة: اثنتا عشرة محاضرة، ترجمة إ.ف لورانس، كامبريدج، دار بوليني بريس، ١٩٨٧، ص٩٥

لذلك أصبحت الذات الإنسانية في سياق هذا التطور موضعا للعلم والعقلانية وثم استلاب هذه الذات من مقومات وجودها الإنسانية.

- نجد زعيم النزعة الطبيعية "جان جاك روسو" ١٧٧٨ في القرن الثامن عشر يبرز سلبيات الحداثة لقوله أنها اجتاحت العمق الإنساني واستلبت المشاعر السامية للإنسان، وقد أكد ذلك في مختلف أعماله بدء من العقد الاجتماعي وانتهاء بكتابة "إميل" حيث هاجم التقدم العلمي الذي أدى إلى تشويه الجانب الإنساني في الإنسان، ونادى بإصلاح التربية والقيم والمؤسسات السياسية والدين من أجل الإنسان في أعمق مضامينه الإنسانية[١٠]، وإذا كان الإنسان اليوم يحتل مكانا مركزيا في دائرة تصوراتنا فإن هذا يعود بالدرجة الأولى إلى "روسو" وعلى هذا الأساس يقول "كانط" إن "روسو" هو "نيوتن" العالم الأخلاقي.

Discoures sur l'origine de l'inégalité ويؤكد "روسو" على الحضارة المادية العقلانية تؤدي إلى تراجع الأخلاق وتراجع القيم الإنسانية وتدفع الإنسان إلى دوائر الاستلاب والاغتراب، وفي هذا السياق يرى "روسو" أن المجتمع ليس عقلانيا وأن الحداثة تفسد أكثر مما تقدمه من فوائد، وبالتالي من أجل تحقيق الوحدة بين الإنسان والمجتمع فإن الحداثة تؤدي إلى تأكيد السيادة السياسية التي توظف في خدمة العقل وهي سيادة تنمو وتزدهر على حساب الذات الإنسانية المتفردة، وبعبارة أخرى من أجل انتصار العقل والعقلانية ويجب التخلي على الذات الإنسانية بما تنطوي عليه هذه الذات من كرامة وخصوصية. وهنا يجب على الإنسان أن يخضع لعقله وتأملاته العقلية وذلك على حساب عواطفه ومشاعره وقيمه الخاصة، وعلى هذا الأساس يستطيع المرء أن يتدرج ويأخذ مكانه وحضوره في سياق وجوده الاجتماعي وذلك بوصفه عاملا أو جنديا أو مواطنا بدرجة أكبر من كونه سيدا لنفسه ولمصيره، وعلى هذا الأساس يتحول العقل إلى طاغية والعقلانية إلى قهر واستبداد تنتهك وجود الإنسان وتستلبه[١١].

لقد فقدت الحداثة قدرتها على تحرير الإنسان بعد أن أدت دورها التاريخي، وفي هذا السياق يقول "تورين" <<بقدر ما تنتصر الحداثة بقدر ما تفقد قدرتها على التحرير، إن دعوة التنوير مؤثرة عندما يكون العالم غارقا في الظلام والجهل والعبودية>>. ومن أجل تفسير هذا التناقض الكبير يشرح لنا "تورين" هذه الإشكالية، إشكالية التحرير والعبودية فيما بين عصر

---

[١٠] المسدي عبد السلام: النقد والحداثة، دار الطليعة للنشر، ط١، بيروت، لبنان، ١٩٨٣، ص٩٥.

[١١] آلان تورين: نقد الحداثة، ترجمة أنور مغيث، المجلس الأعلى للثقافة، المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٩٢، ص١٦

التقاليد وعصر الحداثة فيقول <<كنا نعيش في الصمت صرنا نعيش في الضجيج، كنا معزولين فصرنا ضائعين وسط الزحام، كنا نتسلم قليلا من الرسائل والآن تنهمر علينا كوابل من نار، لقد انتزعتنا الحداثة من الحدود الضيقة للثقافة التقليدية المحلية التي كنا نحياها وألقت بنا في جحيم الحرية الفردية، لقد ناضلنا ضد نظم الحكم القديمة الفاسدة وميراثها، أما في القرن العشرين فضد الأنظمة الجديدة والمجتمع الجديد والإنسان الجديد>>